

## الفصل الأول

### بيئات الشعر الأموي

١

#### الحجاز

يمتد الحجاز في غربى الجزيرة العربية محاذياً للبحر الأحمر من أيلة ( العقبة ) شمالاً إلى اليمن جنوباً . وكلمة الحجاز ، ومعناها الحاجز ، تدل على حقيقة هذا الإقليم ، فهو سلاسل من جبال تسمى جبال السراة تحجز بين نجد شرقاً وتيهامة غرباً ، وتتخلل هذه السلاسل وديان ذات زرع وأخرى غير ذات زرع . وفى واد من الوديان الأخيرة تقوم مكة حول بئر زمزم بينما تقوم الطائف على بعد سبعين ميلاً جنوبيها فى بقعة خصبة تشتهر بالبساتين النضرة ، وتقوم فى الشمال يشرب فى هذه الواحة الجميلة التى شققتها الطبيعة بين حترّات مختلفة .

وكان الحجاز فى العصر الجاهلى طريق القوافل المصعدّة شمالاً إلى البحر المتوسط ، إلى الشام ومصر ، والمنحدرة جنوباً إلى حوض المحيط الهندى ، إلى اليمن والحبشة<sup>(١)</sup> . وقد استقرت مفاتيح هذه القوافل وما تحمل من عرّوض التجارة فى أيدي أهل مكة فكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً ، وشرقاً أيضاً حيث كانت تحمل سلع الفرس ، وما ينزل على الخليج الفارسى من سلع الهند .

ونشطت مكة فى هذه التجارة أواخر العصر الجاهلى نشاطاً هائلاً ، حتى ليظن بعض الباحثين أنها كانت جمهورية تجارية ممتازة<sup>(٢)</sup> ، فقد كانت حينئذ أهم حلقة للاتصال بين حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندى . وساعد على ذلك

(1) انظر هنا : O'Leary, Arabia Before.

وانظر فى شؤون مكة المالية ، الفصول : الثامن والتاسع والعاشر .

(٢) انظر : Lammens, La Mecque

(London, 1927) p. 179.

(٢) انظر : Lammens, La Mecque

أن طريق المَوْصِل إلى الشام كان مُقْتَمَلًا بسبب الحروب المستمرة بين الفرس والروم ، وأيضًا فإن الملاحة في البحر الأحمر ضعفت بسبب كثرة القراصنة فيه ، فلم تعد هناك وسيلة للصلة بين الشمال والجنوب ونَقَلَ توابل الهند وعروض اليمن وسلِّع الحبشة والعراق سوى هذه القوافل التي أمسكت مكة بزمامها .

وهذا المركز للمكة في الجاهلية جعلها — بحكم قوافلها وتجاريتها — تتصل بعناصر مسيحية وإغريقية وفارسية مختلفة ، فقد كان بها جالية من الحبشة والروم المسيحيين ، ويظهر أنه كان بها لبيزنطة مندوبون<sup>(١)</sup> . وهذا لا شك يؤكد الصلة بينها وبين العالم المسيحي الإغريقي ، عالم البحر المتوسط ، وهو العالم الذي كانت تتَّجِر فيه . وكان بعض القساوسة يزورون أسواقها ويعطون فيها الناس<sup>(٢)</sup> ، ويذكر اليعقوبي في تاريخه أن جماعة من أهل مكة تنصروا في الجاهلية ، منهم ورقة بن نوفل<sup>(٣)</sup> .

وفي يَشْرِب وعلى طول الطريق إلى الشام في الشمال كانت هناك مستعمرات يهودية منبثة في خَيْبَر ووادي القُرَى وتَيْمَاء ، وهي مستعمرات رحلت إليها اليهود منذ اضطهدهم أباطرة الرومان من مثل أدريان الذي طردهم من فلسطين عام ١٣٢ م .

وقد استمر اليهود قبل نزولهم الحجاز أحقابًا متطاولة تحت الحكم اليوناني الروماني وكانوا منتشرين في حوض البحر المتوسط على العموم ، وكان إذ ذاك حوضًا للثقافة ، وطبيعي أيضًا أن يتسرب شيء من ذلك إلى يهود الحجاز ، يحملونه معهم — في أثناء هجرتهم — تارة ، ويحمله إليهم يهود جُدُد راحلون تارة ثانية .

ومعنى ذلك أن الحجاز في العصر الجاهلي كان متصلًا بالحضارة الرومانية الإغريقية وأيضًا فإنه اتصل بالحضارة الفارسية ، إذ كان كثير من أهله يفلون على الحيرة ويتصلون بالفرس ، ويأخذون عنهم ، ففي السيرة أن النَّضْر بن الحارث « قَدِم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتَم وإِسْفِينْدِيَار ،

وانظر السيرة الحلبية (طبعة القاهرة سنة

١٣٠٨ هـ) ١/٧٥ .

(٢) البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ١/٣٠٨ .

(٣) اليعقوبي (طبعة هرتسما) ١/٢٩٨ .

(١) انظر أوليري ص ١٨٤ ولانسن ص ٢٥٧

وارجع إلى أسد الغابة (طبع المطبعة البهية)

٢٢/٣ ، ٤٢٧/٤ وكذلك ١٩٤/٥ ،

٤٦٢/٥ ، ٤٨١/٥ حيث تجد أسماء رومية

لرجال ونساء كانوا في مكة قبل الإسلام ،

فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فذكرَ بالله ، وحذرَ قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم مِن نعمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إليّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار<sup>(١)</sup> . وفي الأغاني أن ابن جندب عان « كان سيداً من قريش فوفد على كسرى ، فأكل عنده الفالوذ ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا الفالوذ ، قال وما الفالوذ ؟ قالوا لبياب البرّ يلبسك مع غسل النحل ، قال ابغوني غلاماً يصنعه ، فأتوه بغلام يصنعه ، فابتاعه ، ثم قدم به مكة معه<sup>(٢)</sup> » . واسم سلمان الفارسي الذي أسلم حين هاجر رسول الله إلى المدينة ذائع مشهور .

فالحجاز لم يكن مُغلَقاً في العصر الجاهلي أمام الحضارتين الفارسية والرومانية الإغريقية ، بل كان على اتصال بهما ، حتى إذا أفاء الله عليه نعمة الإسلام وأخذت ألويته تخفق في ربوع فارس والشام ومصر اندمج اندماجاً تاماً في الحضارتين ، إذ صبّت فيه كنوز الأرض ، وانصبّت معها ألوان الحضارتين الكبيرتين .

وهنا يحدث تطور واسع في حياة الحجاز ، فقد أصبح لا يقل في شيء عن العالمين المتحضرين من حوله ، إذ أصبح أبناؤه — وخاصة من قريش — سادة العالم ، وقد احتكوا احتكاكاً شديداً بأبناء الأمم الأجنبية الذين استرقوهم ، وأحضرهم معهم إلى مكة والمدينة ، لينهضوا بهما في جميع جوانب الحياة .

ويذهل الإنسان حين يقرأ ما صار إليه الصحابة من ثراء عريض ، وخاصة كبارهم ، فقد روى الرواة أن الزبير بن العوام توفّي عن خمسة وثلاثين ألف ألف درهم ، وقيل بل عن اثنين وخمسين ألف ألف<sup>(٣)</sup> ، وتوفّي طلحة بن عبيد الله عن ثلاثين ألف ألف درهم<sup>(٤)</sup> ، ويقال إن دخله يومياً من بعض ضياعه في العراق بلغ ألف دينار . وقد عقد المسعودي في كتابه ( مروج الذهب ) فصلاً طريفاً عن هذه الثروات الكبيرة ، فقال : إن يعلى بن مسنبة مات عن خمسمائة ألف

١ ق ١ ص ٧٧ .  
٢ (٤) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٥٨ .

(١) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١/٣٢١ .  
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٨/٣٢٩ .  
(٣) طبقات ابن سعد (طبع ليدن) ج ٣

دينار ، ومات زيد بن ثابت عن مائة ألف دينار ، وبلغ الربيع في تركة عبد الرحمن ابن عوف أربعة وثمانين ألف دينار ، أما عثمان بن عفان فخلّف خمسين ومائة ألف دينار وألف درهم وعقارات قيمتها مائة ألف دينار . وعلّق المسعودي بعد ذكره لهذه الثروات الضخمة بقوله : « وهذا باب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه <sup>(١)</sup> » .

ولا ريب في أن هذا الثراء الذي سال في حججور الحجازيين وخاصة من أهل مكة والمدينة تبعه تبدلٌ واسع في حياتهم وحياة أبنائهم فقد اتخذوا القصور وبنّوها بالآجر والجصّ والسّاج ، وجعلوا في أعلاها الشرفات ، وكانت قصور عثمان وسعد بن أبي وقاص وطلحة والمقداد وعبد الرحمن بن عوف تسترعى الأنظار <sup>(٢)</sup> . وأصاب مكة ما أصاب المدينة ، فقد بنى فيها معاوية دوراً يقال لها « الرُقُط » لاختلاف ألوانها ، وأحضر لها البتّائين من الفرس <sup>(٣)</sup> ، وتبعه سراة مكة يشيدون قصوراً باذخة في عهده وبعد عهده . روى الأزرق أن ابن عباس قال لابن صفوان صاحب عبد الله بن الزبير : « هيهات هيهات ! تركت والله سنّة عمر ، قَصَصِي عمر أن أسفل الوادي وأعلاه مُنْساخ للحجاج وأجساداً وقُعَيْقِعَان للريحين والذاهبين ، واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً <sup>(٤)</sup> » .

وعلى هذا النحو أصبحت المدينتان الكبيرتان في الحجاز لا تقلان في شيء عن مدن البحر المتوسط وقد أخذتا تغرقان في الحضارات الأجنبية إلى آذانهما ، ولم يحلّ تحول الخلافة إلى دمشق في العصر الأموي بينهما وبين شيء من ذلك ، بل لعله أعطاهما الفرصة لكي تنهلا من الحضارات الأجنبية كما تريدان ، أو كما يريد أهلها . وفرق بعيد بين الصحابة وأبنائهم في التحضر ، فإن أولئك عاشوا في الجاهلية ، وفي شطّاف العيش ، أما أبنائهم فإنهم عاشوا في عصر جديد ، هو عصر الفتوح والثراء ، وكان الأمويون يكثرّون من نَسْرِ الأموال عليهم ، حتى يصفوهم عن الخلافة <sup>(٥)</sup> .

(٤) أخبار مكة للأزرق (طبع ليسك)

ص ٣٩٢ .

(٥) انظر الفخري (طبعة درنبرغ) ص ١٤٥ =

(١) مروج الذهب (طبع باريس) ٢٥٥/٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢٥٤/٤ .

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨١/٣ .

وليس كل ما يلاحظ في حياة الحجازيين في أثناء العصر الأموي القصور والأموال فحسب ، بل يلاحظ أيضاً الترف ، فقد طَعَمُوا وشَرَبُوا في أواني الذهب والفضة<sup>(١)</sup> ولبسوا الخمرَ والديباجَ والإستبرقَ والحلَّـلَ الموشَّاةَ<sup>(٢)</sup> ، وغالوا في ذلك ، فكان العَرَجِيُّ الشاعر يلبس الحلتين بخمسمائة دينار<sup>(٣)</sup> أو نحو ثلاثمائة جنيه ، وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمصن كأنها درج بعضها أقصر من بعض ، وفوقها رداء علفتي بألثى درهم<sup>(٤)</sup> . أما النساء فكانَّ يلبسن الثياب الرقيقة الشفافة<sup>(٥)</sup> ، وكان يبالغن في التحلَّى باللؤلؤ والياقوت والجواهر الكريمة<sup>(٦)</sup> .

ومرَّ بنا في أول هذا الكلام أن الحجاز كان على صلة بالحضارتين الفارسية والرومانية الإغريقية في الجاهلية ، أما في هذا العصر فقد اندمج اندماجاً تاماً في هاتين الحضارتين بواسطة الرقيق الأجنبي الكثير الذي حتفل به منذ الفتح . ويكفي أن نعرف أن معاوية أرسل إلى عمر أربعة آلاف من سبئى قيسارية<sup>(٧)</sup> وحدها ولا بد أن سبئياً كثيراً جداً دخل من المدن الرومية الأخرى التي فُتحت ثم المدن الفارسية . ولعل مما يوضح كثرة هذا الرقيق الأجنبي في الحجاز ما يروى من أن الزبير بن العوام ترك ألف عبد وأمة<sup>(٨)</sup> ، وأيضاً فإنه يروى أن من قُتلوا في موقعة الحرَّة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية من الموالى بلغوا خمسة آلاف ، بينما قُتل من الأنصار وقريش ثلاثة آلاف<sup>(٩)</sup> . فإذا قلنا بعد ذلك إن الحجاز اقتحمته في هذا العصر الأموي الحضارتان الفارسية والرومانية الإغريقية لم نكن مجاوزين للواقع في شيء .

ومعنى ذلك أن الحجاز إن كان قد فتح الدولتين الكبيرتين : فارس وبيزنطة ،

وديوان ابن أبي ربيعة (طبع لبيسك) ص ٣ ،  
٤٥٤٢١ ، وابن سعد ٣٥٢/٨ .

(٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧٣/٨  
و (طبع السامى) ١٦١/١٤ وابن سعد ٣٤٣/٨  
وديوان ابن أبي ربيعة ص ٢٥ .

(٧) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع دى غويه)  
ص ١٤٢ .

(٨) المسعودى ٢٥٤/٤ .

(٩) انظر كلمة حرة في معجم البلدان لياقوت .

= والعقد الفريد (طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ)

١٤٥/١ والطبرى (طبعة دى غويه) ٤/٢  
وكذلك ٤٠٢/٢ ، ٤٢٢/٢ .

(١) ابن عبد ربه ١١١/١ .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٢١/١ ،

٢٧٨/١ ، وكذلك ٣١٠/١ ، ٦٥/٥ ،

١٣/٦ و (طبعة السامى) ٢٠٤/١٨ .

(٣) أغاني ٣٩٥/١ .

(٤) أغاني (طبعة السامى) ٨٩/١٧ .

(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ٤٠٤/١ .

فإن حضارتيهما فتحتاه عن طريق هذه العناصر الكثيرة التي انتقلت إليه ، وقامت على خدمة أبنائه وإعداد الحياة لهم . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، واستعملوهم في مهتهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المسهرة في أمثال ذلك والقسومة عليه ، فأفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرْمِيَّ<sup>(١)</sup> ، فأتوا من ذلك وراء الغاية<sup>(٢)</sup> . »

وأظن في هذا ما يوضح كيف تطورت الحياة في الحجاز تحت تأثير العناصر الجديدة من الموالى ، فقد تطورت هناك الحياة المادية تطوراً كبيراً ، ومسحت الأيدي الأجنبية عليها ، ونقلتها إلى ما يشبه الحياة المألوفة لها في مدن بني ساسان ومدن البحر المتوسط .

وسرعان ما وُجِدَتْ في مكة والمدينة هذه الطبقة العاطلة التي توجد في الأمة حين تتحضر ، فقد فرغ كثير من الشباب ، وأتتهم الدنيا بمخذاً فبرها ، فإذا يصنعون بأوقاتهم ؟ وكيف يُحْضَرُونَهَا ؟ . إن طائفة منهم عُثِيت بالدرس الديني في المساجد ، ولكن بقيت طوائف تريد اللهو والمتعة بالحياة . وهنا نجد هذا الرقيق الأجنبي ينهض بفنّ كان معروفاً في الجاهلية ولكنه كان لا يزال قريباً من طور السداجة ، وهو فن الغناء ، فزراه يُقْبَلُ على هذا الفن كي يُرْفَقَهُ عن الشباب وزراه يفتح له النوادي في المدينة ومكة جميعاً ، بحيث تصبح نواديه أشبه ما تكون بدور الخيالة والمسارح في عصرنا . واشتهر في المدينة نادى جميلة ، أو كما كانوا يقولون دارها التي خرّجت مئات المغنين والمغنيات .

وكل من يقرأ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يجده زاخراً بأسماء المغنيات والمغنين من الموالى الذين عاشوا في مكة والمدينة من مثل ابن سُرَيْج ، وابن مِسْجَح ، وابن مُحَرَّر ، ومثل طُوَيْس ، وسائب خاثر ، ونشيط ، ومَعْبُد ،

(١) الحرثي : أثنان البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبع بولاق) ص ١٤٤

وسلامَة القَسّ ، وحبّابة ، وغير هؤلاء كثير . ونحت أيديهم وأيدي زملائهم وزميلاتهم ظهرت نظرية الغناء الجديدة المعروفة في كتاب الأغاني إذ يذكر أبو الفرج الصوت ، أو كما نقول الآن الدور ، ثم يذكر وراءه الرقيم الموسيقي الخاص به ، من مثل ثقيل أول ، وخفيف الثقيل ، وخفيف الرّمَل ونحو ذلك .

وإذن فالحجاز هو الذي استحدث نظرية الغناء الجديدة عند العرب ، استحدثها موالى مكة والمدينة ، ولم يستحدثها أهل دمشق البيزنطية ، ولا أهل البصرة والكوفة القريبتين من فارس . ولعل في هذا دليلاً واضحاً على أن البلديتين القديمتين في الحجاز لم تقصراً هذا العصر في التحضر والحضارة . وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس هناك فرغوا للهو والغناء وسماع المغنين والمغنيات ، فقد صفت لهم الدنيا إلا فترة قليلة نحو ثمانى سنوات ، هي سنوات ابن الزبير ، أما بعد ذلك وقبل ذلك فكانت الريح ساكنة ، وكان العيش هادئاً رصياً ، وقد أقبلوا يعجبون من الترف والنعيم ، كما أقبلوا على الغناء يسمعون ويظربون .

وأكبر الظن أن هذه البيئة من بيئات الشعر في عصر بني أمية قد اتضحت لنا ، فهي من ناحية بيئة تحضرت ، وأترفت ذوقها ، وأصبح أهلها يمثلون رقة في الشعور ورقة في الحس لم تكن لأبايهم ، لسبب طبيعي ، هو أنهم أبناء حضارة جديدة وعصر جديد ، فيه ترف ونعيم ، وفيه هذه التأثيرات الحضارية التي تُرهِف الحس ، وترقق الشعور ، بل تجعل بعض الناس حساً وشعوراً خالصين .

وطبيعي أن ينفصل شعر هذه البيئة المتحضرة عن الشعر الجاهلي القديم ، فكل من يتابع درس شعر الحجازيين لهذا العصر يلاحظ أن الهجاء يقل فيه قلة شديدة ، كما يلاحظ أن المديح لم يعد اللون الصارخ في الشعر ، فإن أكثر الحجازيين لم يكونوا في حاجة إلى التكسب بشعرهم ، إنما اللون الذي يستفدهم هو الغزل ، وهو لون يتلاءم مع رقة الحس ورقة الشعور ، وأيضاً فإنه يتلاءم مع فن الغناء الجديد .

ومن هنا كان أكثر الشعراء في الحجاز لهذا العصر شعراء حُبِّ وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبي ربيعة والعرجي وابن قيس الرقيات في مكة

والأحوّص في المدينة ، فقد ذهب شعرهم جميعاً في التغنى بقصة الحب وأحداثه وقائعه ، وعبروا في ذلك عن رقة حسّ شديدة ، وكاد شعرهم يتحول في كثير من جوانبه إلى أنفاس خالصة .

ومعنى ذلك أن الشعر طُبِعَ في أثناء العصر الأموي في الحجاز بطوابع حضارية أثرت في الحس والشعور ، كما أثرت في عمل الشعر نفسه عن طريق فنّ الغناء ونظريته الجديدة . ولعل من أهم ما يلاحظ بصدد هذا الفن أنه أحال شعر الحجازيين إلى ما يشبه أن يكون عملاً مشتركاً بين الشعراء وبين المغنيات والمغنين ، إذ كان الشاعر ينظم شعره ، ثم يعرضه على مَنْ حوله من المغنين والمغنيات ليغنوا به ، فكانوا يحورون فيه حتى يتلاءم مع ألحانهم وأنغامهم .

وإذن فالشعر لم يعد في الحجاز عملاً مستقلاً يقوم به الشاعر ، بل أصبح عملاً يعتمد على عمل آخر ، أو قل أصبح فناً يعتمد اعتماداً على فن الغناء وألحانه وأنغامه ، وهو فن كان ينهض به الموالى من المغنين والمغنيات .

وهؤلاء الموالى لم يؤثروا في الشعر فقط عن طريق نظرية الغناء التي استحدثوها ، بل أخذوا يؤثرون فيه مباشرة ، فإن كثيراً منهم أخذ يتقن صناعته ، بحيث لا فصل إلى أواخر القرن الأول للهجرة وأوائل الثاني حتى نجد بين الموالى مَنْ يشتهرون بنظم الشعر من مثل أبي العباس الأعمى في مكة<sup>(١)</sup> وإسماعيل بن يسّار النَّسائي وإخوته في المدينة<sup>(٢)</sup> . وأخذ يظهر بين المغنين الأجانب أنفسهم من يحسن نظم الشعر مثل أبي سعيد مولى فائد ، وكان مغنياً وشاعراً<sup>(٣)</sup> ، ومثل سلامة القسّ وكانت تحسن الشعر والغناء جميعاً<sup>(٤)</sup> .

فالحجاز في هذا العصر الأموي كان مسرحاً لشعر غنائى تام يقوم على وصف قصة الحب من جهة كما يقوم على الصلة الدقيقة بالغناء وألحانه من جهة أخرى ، فهو شعر قيل ليُغنى ، وليُصْحَب بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية مما سنعرض له في غير هذا الموضع .

(٣) أغاني ٤/٣٣٠ .

(٤) أغاني ٨/٣٣٣ .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٥/٥٧ .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٤/٤٠٨ .

وما يبعدها .

## نجد

هي الصحراء الداخلية بلخزيرة العرب ، وهي تمتد من الحجاز غرباً إلى الخليج العربي ووادي الفُرات شرقاً ، وليس فيها أنهار جارية ، إنما فيها أودية تهبط فيها الأمطار ، وتنمو حولها بعض الأعشاب والمرعى . ويمكننا أن نميز في هذه الرقعة الكبيرة صحراء النفود التي تقع في شماليها ، وتشتهر بكشبانها الرملية ، وقلة آبارها ، ولولا رطوبة الجو بها التي تسمح بنمو النباتات الصحراوية ذات الجذور الطويلة من مثل الأثل والأرطى وكذلك نمو بعض الأعشاب لتعذرت الحياة فيها . وفي جنوبي هذه الصحراء الشمالية نجد جبلي طيبي : أجباً وسلحى ، وهما يمتدان في شكل هلال كبير ، والجو بهما صحى ، والطقس منعش ، وتسقط بعض الأمطار التي تؤهل للزراعة .

وتضيق صحراء النفود كلما اتجهنا شرقاً حتى نصل بواسطة برزخ ضيق إلى صحراء الدهناء الشرقية ، تلك الصحراء التي تسقط سقوطاً شديداً نحو الخليج العربي ، وتمتاز بكثرة وديانها ويناابيعها . وإذا انتهينا إلى جنوب هذه الدهناء وسرنا غرباً ، أصبحنا في دهناء كبيرة تسمى الربع الخالى ، وهي تُعدُّ مجهولة حتى اليوم . والبقية الباقية من نجد في شمالي الربع الخالى وشرقي الحجاز تكثُر فيها المرتفعات ، كما تكثُر الوديان ، إلا أن طقسها أكثر احتمالاً .

وهذه الصحراء هي موطن البدو أو القبائل الرُّحَّل من العرب الذين يرعون الأغنام والأنعام ، ويتنقلون حول المراعى معتمدين على ما تهبه السماء لهم من مطر ، ولعلهم من أجل ذلك سموه غَيْباً . وإذا احتبس هذا الغيث جفَّت الحياة وهلكت القطعان والرَّعاء ، ولذلك كثرت رحلة البدو في الصحراء يطلبون مساقط الغيث ، ويتجمعون الكلاً والماء .

وإذا ضاقت بهم صحراؤهم رحلوا إلى المناطق المنخفضة من حولهم يغزون

أو ينهبون ، وأحياناً نراهم يقيمون جنباً إلى جنب مع أصحاب هذه المناطق ، ويحاولون أن يتعلموا الزراعة منهم كما حدث لقبائل ربيعة في العراق قبل الإسلام ، وكان ذلك سبباً مهماً في اقتباسها بعض العادات والأفكار من سكان أحواض دجلة والفرات .

ولكن الكثرة الغالبة بقيت في الصحراء تهاجر داخلياً من كلاً إلى كلاً ومن مرعى إلى مرعى ، وتقتتل في سبيل ذلك مع جيرانها ومن تصادفهم في طريقها ، وقد طبع ذلك الحياة الجاهلية في نجد بطابع الغزو والإغارة ، فكثرت أيام العرب ، وكثرت حروبهم .

ومعنى ذلك أن حياة البدو في نجد لم تعرف الاستقرار ، فقد كانت من جهة حربياً مستمرة ، وكانت من جهة ثانية رحيلاً مستمراً . وهذا الرحيل المستمر الدائر لم يؤهل هؤلاء البدو لحضارة ، بل جعلهم في شبه عزلة ، فأسوار الصحراء تفصل بينهم وبين من حولهم من الأمم المتحضرة ، وليس عندهم من الفرصة أو الوقت ما يجعلهم يستقرون ويعملون في سبيل حضارة متدرجة . ومن هنا تخلقت قبائل نجد عن التقدم في مضمار الحضارة إلا ما سقط إلى بعضهم سقوطاً عن طريق احتكاكهم بسكان العراق وسكان الشام .

ويقسم النسابون قبائل العرب قسمين كبيرين يتشعبان من قحطان وعدنان ، ويسميان القبائل القحطانية والعدنانية<sup>(١)</sup> ، وهو تقسيم يردُّ إلى حقيقة تاريخية ، فالقبائل القحطانية أو اليمنية قبائل جنوبية هاجرت إلى الشمال في أزمان متفرقة ، وخاصة بعد أن ضعفت الدولة الحميرية ، أي منذ القرنين الرابع والخامس للميلاد ، أما القبائل العدنانية فهي القبائل التي كانت تسكن في الشمال دائماً .

والمعروف أنه كانت هناك لغة جنوبية تفرق عن لغة عرب الشمال ، وهي اللغة الحميرية ، وهي أقرب إلى الحبشية منها إلى العربية الشمالية . وكان عرب الجنوب أكثر تحضراً من عرب الشمال ، وهم في واقع الأمر متحضرون تَبَسُّوْا ، غير أن من يرجع إلى أخبار هذه القبائل حين ظهور الإسلام يلاحظ أنهم طَبِعُوا بطوابع

(١) انظر هنا كتاب أوليى السابق ص ١٥ وما بعدها .

عرب الشمال لا من حيث البداوة فقط ، بل من حيث اللغة أيضاً ، فقد هجروا لغتهم الحميرية أو اليمنية إلى العربية الشمالية ، ولذلك قلما نلاحظ فروقاً بين لغة شعرهم ولغة شعر جيرانهم العدنانيين .

والذى يلفت النظر حقاً هو أن قبائل نجد تكتسبت في هذين الفرعين الكبيرين وقامت بينها منافسات كثيرة على أساس هذا التكتل ، وهو ما يُعرفُ في تاريخ العرب بالعصبيات القحطانية والعدنانية ، أو اليمنية والمضربة . وقد ظلت هذه العصبيات بعد الإسلام في صورة لا تدع للباحث مجالاً للشك في أنها تعبر عن نزعات قديمة توارثتها القبائل العربية .

وأهم القبائل القحطانية لَحْمٌ وقد نزلت في الحيرة ، وَجُهَيْنَةَ وَكَلْبٌ وقد نزلتا في بادية الشام ، وَغَسَّانُ التي نزلت على الحدود السورية ، وعاملتة وجندام وقضاعة اللاتي نزلن شماليّ الحجاز وعلى حدود فلسطين ، وَعُدْرَةَ التي نزلت بالقرب من تيماء ووادى القرى . ثم الأوس والخزرج في يثرب ، وخزاعة حول مكة ، وطيمية في جبليّ أجبأ وسلمي ، وبسجيلة في الطائف ، وأزد السراة في الحجاز ، وأزد عُمَمان ، وكيندة في حضرموت ، وهَمْدَانُ ومَذْحِجٌ في اليمن ، وإلى مذحج تنتسب قبيلة الحارث بن كعب ، وتُعرفُ ببسحارث ، وكانت تنزل ناحية نَجْرَان .

وأهم القبائل العدنانية بَكْرٌ وتَغْلِبٌ وكانتا تنزلان في الشمال الشرقى للجزيرة ، وتَحِيمٌ وكانت تنزل في صحراء الدهناء ، وعبد القيس وكانت تنزل في البحرين ، وكنانة وهذيل بالقرب من مكة ، وأسد في شماليّ نجد . ثم قبائل قَيْسِ عَيْلَانَ ، وأشهرها هوازن وسُلَيْمٌ وعامر وغطفمان : وإلى غطفان تنتسب عَيْسٌ وذُبْيَان . وكانت هذه القبائل تنزل في شرقيّ الحجاز .

وواضح أن أكثر القبائل العدنانية كان يقيم في داخل الصحراء العربية ، وعلى العكس كانت القبائل اليمنية يقيم أكثرها على الحدود وفي منشآت متاخمة للأمم الأجنبية . وجعلها ذلك تحتك أكثر من القبائل العدنانية بالحضارات المجاورة في العراق والشام ، ولذلك كثرت فيها المسيحية .

على أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أن ما أشرنا إليه من انعزال قبائل نجد عن

جيرانهم المتحضرين إنما هو نظرة عامة ، ولكن من يتفحص صلتهم بمن جاورهم ، وخاصة هذه القبائل القحطانية التي كانت تنزل متاخمةً للفرس في العراق والبيزنطيين في الشام ، يرى أنهم لم يكونوا منزليين البتة عن جيرانهم بل كانوا على صلة دائمة بهم . وكان للقوافل التجارية التي تحدثنا عنها قبل ذلك أثر لا يترك في هذه الصلة ، وكذلك الأسواق التي أقامتها الدول المجاورة لتبادل السلع معهم . وليس ذلك فحسب فإن المستعمرات اليهودية كانت منبثة في الحجاز ، وكانت البعوث المسيحية نشيطة ، واستطاعت أن تُنصّر نَجْران . فذلك كله كان له أثره في تسرب بعض العناصر الحضارية إلى الجزيرة العربية .

وكما قدمنا كانت هذه القبائل تعيش في الجاهلية على الرعي والارتحال وراء مساقط الغيث ، وهي معيشة اعتمدت على منافسات قَبَلِيَّة شديدة بين الفرعين الكبيرين من القحطانيين والعدنانيين ، ثم انقسم الفرعان إلى غصون وشعب كثيرة ، كلها تحاربت وكلها تقاتلت ، بحيث كان تاريخ العرب في الجاهلية ليس إلا أياماً وحروباً ، يتربّص فيها بعضهم ببعض ، ويأكل فيها بعضهم بعضاً .

وحاول الإسلام أن يميّز فيهم هذه الروح ، واستجابوا لهديه إلا نفرًا ظلوا يحكّمون السيوف ، ويعظّمون الدماء ، ويتفعلون انفعالاً شديداً عندما تُمسّ كرامتهم بأدنى شيء ، إلا أن يدخل السلطان فيما بينهم . ونستطيع أن نلاحظ في وضوح أنهم ظلوا بعد الإسلام محتفظين بكثير من صفات بداوتهم ، إذ كانت الجيوش العربية الفاتحة تمونّ منهم ، وكانوا من أجل ذلك كثيرى الهجرة شرقاً وغرباً لحاجة الثغور إليهم ، ولأن الدولة كانت ترى أن يقوم العرب أنفسهم بنشر الإسلام وفتح البلدان .

على أن هذه الهجرة أحدثت شقاقاً جديداً بين هذه القبائل ، فإن القبائل القيسية المضربة حين هاجرت إلى الشام والجزيرة وزاحمت كلباً في الشام وأخواتها من القبائل اليمنية ، كما زاحمت تغلب في الجزيرة ، شبّبت الحرب جنداً عتة بينها وبين هذه القبائل التي زاحمتها . وسرعان ما رأينا الجماعتين تتحوّلان إلى ما يشبه حزبين سياسيين ، فكانت تغلب العدنانية وكلب وغيرها من القبائل اليمنية حزب الدولة الرسمي ، وكانت قيس تقف ، بحكم منازعتها لأصحاب هذا الحزب في

### الصفوف المعارضة .

وقد ورث العصر الأموي بسبب هذه الخصومة أياماً كثيرة ، وأشعاراً كثيرة أيضاً نظمتها كل قبيلة ، أو قُلْ نظمها كل حزب في الانتصار لنفسه . ولعل الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري خيرَ مَرَجِعٍ لهذه الأشعار الكثيرة التي نظمها الفريقان في تلك الحروب .

أما القبائل التي قَرَّتْ واستمرت في داخل الجزيرة فقد وُجِدَ عندها نشاط أدبي محدود ، إذ وجد بينها شعراء يشبهون آباءهم الجاهليين في طباعهم وفي موضوعاتهم التي طرَقوها . على أن هناك جانباً إسلامياً جديداً في حياتهم لم يكن مألوفاً لهم في الجاهلية ، وكان له صداه في شعرهم ، ونقصد الجانب السياسي وما نظَّمته الدولة بينها وبينهم من العلاقات ، وما فَرَّضَ عليهم الإسلام من الصدقات ، فإن ذلك دعا إلى إقامة وُلاة وسُعاة عليهم يجمعون الصدقات منهم ، ويظهر أن بعضهم كان يشتطُّ في ذلك ويبالغ ، فكثُرَ سخطهم على الوُلاة والسعاة ، وصوّرَ شعيرهم ذلك تصويراً طريفاً ، مما سنعرض له في مكان آخر .

ومن غير شك كان النشاط الأدبي في نجد في أثناء هذا العصر الأموي أقلّ مما كان عليه في العصر الجاهلي لسبب بسيط ، وهو كثرة مَن هاجروا منها شرقاً وغرباً . على أن ضرباً طريفاً من الغزل شاع فيها ، ولم يكن مألوفاً من قبل ، وهو غزل عُدْرِيٍّ عفيف . وقد اشتهرت به قبيلة عُدْرَة ، وكلنا نحفظ اسم جَمِيلٍ بِشَيْئَةِ العُدْرِي ، كما اشتهرت به بعض القبائل النجدية الأخرى ، فظهر فيها مثل قَيْسِ بن ذَرِيح ، وأيضاً ظهرت فيها أسماء أشبه ما تكون بالرمز مثل مجنون ليلى العامري ، وهو — فيما نظن — شخصية أسطورية .

على كل حال ظهر هذا الغزل العُدْرِي ، وشاع في نجد وبادي الحجاز في أثناء عصر بني أمية ، وهو غزل يَمَّ عن نفس صافية ، صفهاها الإسلام ، وأحال الحب فيها إلى براءة وطهارة ، فقد سما بالنفوس ، وكان لهذا السمو أثره في هذا الغزل العُدْرِي الذي يرتفع في بعض جوانبه عن المادة والحس .

## العراق

كان جريان دجلة والفُرات في العراق وما عُرِف به من خصب أرضه سبباً في قيام حضارات على رافديه كحضارة بابل وآشور ، وقد سكنه منذ أقدم الأزمنة عناصر مختلفة منها السامى كالأكديين ، ومنها غير السامى كالسومريين . وكل من يرجع إلى تاريخ العراق قبل الإسلام يلاحظ كثرة الغارات والهجرات إليه من الغرب تارة ومن الشرق تارة ثانية ، وطبعي أن تكثر الغارات عليه لما يَطَوِّقه من صحارى مجذبة وجبال قاحلة كجبال طوروس التي تقع في شماليه ، ولذلك كثر وفود القبائل عليه غازية ناهية .

ولما علا نَجْمُ الفرس ونشب الصراع بينهم وبين الرومان كان كل منهما تمتدُّ عينه إلى ما بيد الآخر ، فالرومان يريدون أن يستولوا على الرافدين وما يكوّنانه من الهلال الخصيب ، والفرس يريدون أن يستولوا على مستعمرتي الروم : الشام ومصر . ورأى كل منهما أن يقيم دولة من العرب تكون درعاً له أمام جشع الآخر ، فكوّن الرومان دولة الأنباط وتدمر .

وفي العهد الساساني قبل الإسلام وبعد انقسام الدولة الرومانية إلى غربية وشرقية أو إلى روما وبيزنطة رأينا كلاً من الطرفين يحاول بكل ما وسع من قوة أن يتألف جماعة من العرب يقيم منها دولة ، فكوّن الروم أو كونت بيزنطة إمارة الغساسنة في الشام على حدود سوريا ، بينما كوّن الساسانيون إمارة الحيرة في العراق ، واعتبرا حاكمها العربي أميراً من أمرائهم ، وكانوا يختارونه عادة من قبيلة لحم اليمنية .

ووصلت الحيرة إلى الذروة في القرن السادس الميلادي ، فإن الدولة الحميرية ضعفت ضعفاً شديداً ، فتحولَّ عرب الجنوب كما تحول كثير من قبائل نجد الوسطى وشرق الجزيرة إلى الحيرة ، فكان لها عليهم شبه سيادة ، ولعل ذلك هو الذي جعل الفرس يستولون على اليمن حقة من الدهر .

ونستطيع أن نلاحظ هذا التفوق الذى وصلت إليه الحيرة إذا عرفنا أن المنذر الثالث الذى كان يعاصر جوستينيان صاحب بيزنطة ، اضطراً الرومان حين عقدوا الصلح بينهم وبين الفرس سنة ٥٣٢ م أن يدفعوا له قدرًا من المال ، مثله في ذلك مثل ملك الفرس<sup>(١)</sup> . ودار الزمن دورات وولى الحيرة النعمان بن المنذر الخامس صاحب النابغة الذبياني ، وساءت العلاقات بينه وبين الفرس فحبسوه<sup>(٢)</sup> حتى توفى سنة ٦٠٢ م . وبهذه السنة انتهى حكم الأسرة اللخمية للحيرة ، وولّى الفرس عليها إياساً الطائى ، وغضبت قبيلة بكر اللخمين ، واتجهت جنوباً إلى البحرين ، حيث ظلت تناوى الفرس إلى أن جاء الإسلام .

ومن غير شك سقطت إلى عرب الحيرة في العصر الجاهلى عناصر حضارية كثيرة بعضها عن طريق أصدقائهم من الفرس ، وبعضها عن طريق أعدائهم من البيزنطيين . فكان منهم من يعرف اللغة الفارسية مثل عدى بن زيد ، وكان من تراجمة أبرويز ملك الفرس ، وكان أبوه زيد شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس<sup>(٣)</sup> . وعدى وأبوه زيد إنما هما رمزان لهذه الصلة الحضارية بين أهل الحيرة وجيرانهم الفارسيين .

وكان اشترك اللخمين في الحروب مع بيزنطة سبباً في أن تقتبس الحيرة كثيراً من الأفكار والعناصر الرومانية الإغريقية ، إذ كان ينزل بها بعض الأسرى من البيزنطيين ، كما تدل على ذلك المصادر اليونانية واللاتينية<sup>(٤)</sup> ، ويذكر لامنس أنه كان بها بيزنطى يدعى ابن تيوفيل الطبيب<sup>(٥)</sup> . ويروى أن النعمان الأول استخلم في بناء حصونه بعض البنائين من الإغريق<sup>(٦)</sup> .

وهذه النصوص تشير إشارة قاطعة إلى تأثيرات رومانية إغريقية وصلت إلى الحيرة قبل الإسلام . على أن هناك جانباً مهماً جداً لم نتحدث عنه حتى الآن ، وكان

الأغانى (طبع الساسى) ٩١/١٤ وما بعدها  
حيث يقول أبو الفرج : إنه كان من تجار  
الشام وكان حريفاً للنعمان بيايه وكان أديباً  
حسن الحديث والندام .  
(٦) أوليرى ص ١٥٨ .

(١) انظر أوليرى ص ١٥٩ .  
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٢٢/٢  
- ١٢٨ وانظر المسمودى ٢٠٥/٣ وما بعدها .  
(٣) تاريخ ابن خلدون ٢٦٦/٢ .  
(٤) أوليرى ص ١٥٩ .  
(٥) كتاب مكة للامنس ص ٣٤٥ وانظر

أعمق في الحيرة من كل ما سبق، وهو جانب المسيحية وما كان من تنصّر أهل الحيرة. وحقاً تأخرت الهيئة الحاكمة في التنصّر إلا أننا نجد هنداً أم عمرو بن المنذر بن ماء السماء تبتنى ديراً<sup>(١)</sup> في أواسط القرن السادس ، ويقال إن النعمان بن المنذر دخل في المسيحية<sup>(٢)</sup> .

ولا نصل إلى الإسلام حتى تصبح الحيرة مسيحية ، وكانت تتبع الكنيسة النسطورية التي سيطر عليها السريان في العراق والجزيرة . وصلة السريان وكنيستهم النسطورية بالثقافة الإغريقية مقررة معروفة<sup>(٣)</sup> ، فقد أنشأوا في نصيبين وغيرها مدارس لاهوتية كانت تقتبس عن الأكاديميات الفلسفية، وكانت تحاول أن توفق بين اللاهوت المسيحي والفلسفة اليونانية .

ولم تكن المسألة مسألة صبغة إغريقية عمّت في الكنيسة النسطورية ، بل كانت أكثر من ذلك، فإن السريان انطلقوا يترجمون كثيراً من المؤلفات الإغريقية، وقد عرض دى بور لما ترجموه وقال إنهم أحلوا في الإلهيات عناصر مسيحية محل ما هو وثني ، فبطرس وبولس ويوحنا يترأون أحياناً بدل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وحلّ الإله الواحد محل القدر والآلهة ، ويقول : إنهم ترجموا الرياضيات والطبيخيات والطب ومجموعات من الحكيم الخلقية والتهديبية ، وعُنوا أشد العناية بالفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية ومنطق أرسطو<sup>(٤)</sup> .

وكان هؤلاء السريان ينتشرون في حوض دجلة الأعلى وفي الجنوب حول الحيرة وفي الحيرة نفسها . فإذا قلنا بعد ذلك إن العرب المقيمين في شرق الجزيرة قبل الإسلام وقعوا تحت تأثيرات فارسية مجاورتهم لفارس ، وليس ذلك فحسب ، بل لقد وقعوا تحت تأثيرات إغريقية بواسطة هؤلاء السريان من النساطرة الذين نشروا المسيحية فيهم لم تكن مبالغين ولا مغالين ، فقد دخلت المسيحية في بكر وتغلب كما دخلت في الحيرة ، وإذا كان بين عرب الحيرة من عرفوا اللسان الفارسي مثل عدى وأبيه زيد فأكبر الظن أن كثيراً منهم عرفوا اللسان السرياني . ونفذوا منه

(٣) أوليري ص ١٣١ وما بعدها .  
(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور  
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٢٠ .

(١) انظر معجم البلدان لياقوت في اسم دير  
هند الصغرى ودير هند الكبرى والأغانى (طبع دار  
الكتب) ١٣١/٢ .  
(٢) أغانى ٩٦/٢ .

إلى تمثل كثير من الثقافة الإغريقية .

ومعنى كل ذلك أن عرب العراق خضعوا قبل الإسلام لتأثيرات فارسية وأخرى رومانية إغريقية ، فلما جاء الإسلام وخرجت قبائل كثيرة من نجد إلى العراق خضعوا لنفس التأثيرات ، بل إن التأثيرات كانت أعنف وأحدّ ، فقد انتقل الفرس بحضارتهم إلى الإسلام كما انتقل كثير من نصارى العراق إلى الإسلام أيضاً . وحلّت البصرة والكوفة محل الحيرة ، واحتفظنا بكل التراث الثقافي الفارسي والروماني الإغريقي الذي كان منبثاً هناك . ومن المحقق أن حركة عقلية كبيرة انبثقت في الكوفة والبصرة في أثناء عصر بني أمية ، وكان العرب هم الذين أشعلوا جذوتها ، فقد أخذوا يقبلون على دراسات القرآن الكريم وتعاليم الإسلام الحنيف ، وأخذت تتكون مدارس مختلفة تُعنى بالتفسير والفقه ورواية الحديث النبوي ، كما تكونت مدرسة كلامية تبحث في مسائل القدر ، وكلنا نعرف المدرسة العقلية التي كان من أهم دعائمها الحسن البصري وتلميذه واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال ، وهي المدرسة التي أُسست بالبصرة والتي كانت تقول بحرية الإدارة .

وكل ذلك أتاح للعرب هناك نشاطاً عقلياً جَمّاً ، فهم يثيرون المسائل في الدين ، ويجيبهم عليها جيّدَةً من الفقهاء ، وهم يبحثون في الإيمان وفي القضاء والقدر ، ويجيبهم عليها المتكلمون الورعون ، من أمثال الحسن البصري ، الذين وقفوا أنفسهم على وعظ المسلمين وإرشادهم وتوضيح ما يغمض عليهم مستندين إلى آي الذكر الحكيم ونصوص الحديث الشريف .

على أنه ينبغي أن نضم إلى إقليم العراق في هذا العصر الأموي إقليم فارس وما كان به من تأثيرات رومانية إغريقية عن طريق البيزنطيين الذين كانوا ينزلون هناك إما مأسورين أو فارّين من الدولة البيزنطية حين اضطهدت من لا يقول بعقيدتها المسيحية في طبيعة المسيح . ومعروف أن كسرى أنوشروان (٥٣١ -- ٥٧٩ م) أسس في جنسنديسابور معهداً للدراسات الفلسفية والطبية ، وقام على هذا المعهد أساتذة من المسيحيين السريان يعاونهم بعض اليونان .

ونحن إننا نضم هذا الإقليم إلى العراق لأنه كان مضموماً في هذا العصر الأموي فعلاً إليه ؛ إذ كان يتبعه في السياسة ، فكان وإلى العراق هو الذي يُديره ، وهو

الذى يولّى عليه من يشاء من موظفيه . وكذلك الشأن فى إقليم خراسان وما فُتِحَ من الهند ، فالعراق كان يضم تحت جناحيه شرق الدولة العربية كلها .

ومهما يكن فإن العراق أهدى هو وما وراءه من فارس إلى العرب كل ما عرف الفرس من حضارة ، وكل ما سقط فيه أو فى فارس من تأثيرات بيزنطية . وقد اتسعت هذه التأثيرات فى العصر الأموى ، وأخذت تدفع العرب دفعاً أن يؤسّسوا - على مناهج صحيحة - دراساتهم المختلفة .

وإذا كان العراق أهدى إلى العرب كل ما احتفظ به من تراث ثقافى فارسى أو رومانى إغريقى ، فإنه أهدى إليهم أيضاً منافسته القديمة لعرب الشام الذين كانوا يحاربون دائماً فى صفوف بيزنطة ، بينما كان يحارب هو فى صفوف الدولة الساسانية . فلما جاء الإسلام أسدل الستار مؤقتاً على هذه المنافسة ، وشغل اللخميون والغساسنة جميعاً بالفتوح ، وخيّل إلى الناس أن نيران هذه المنافسة استحالَت رماداً ، ولكن لم تكد تظهر أول فتنة فى الإسلام حتى تبيّن أنه لا يزال تحت الرماد وميضُ جَمْرٍ ، فاشتبكت الفتنان فى سلسلة حروب ، واستطاعت الشام يمثلها معاوية أن تنتصر على العراق التى كان يمثلها على . وصور شاعران فى الإقليمين المتنافسين تصويراً واضحاً هذه النزعة ، فقال شاعر الشام :

أرى الشام تكره مُلْكَ العراقِ      وأهلُ العراقِ لهم كارهونا  
وقالوا على "إمام" لنا      فقلنا رضينا ابنَ هندٍ رضينا

وقال شاعر العراق :

أناكم على "بأهل" العراقِ      وأهل الحجاز فما تصنَعُونَا  
فإن يكره القومُ ملكَ العراقِ      فقيدمًا رضينا الذى تكرهونا<sup>(١)</sup>

ومن هنا ظهر التنافس شديداً طوال عصر بنى أمية بين أهل العراق ومن يتبعهم من فارس وبين أهل الشام . فكان الأولون دائماً فى اضطراب سياسى مستمر ، إذ كانوا معارضين للأمويين أصحاب أهل الشام ، وكانوا دائماً يطربون

(١) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن)

مع أول ناعق للثورة عليهم ، طاروا أو ثاروا مع الحسين بن علي ، أو على الأقل حاولوا ، وثاروا مع المختار الشَّقَقِيّ ، وثاروا مع مُصْعَبِ بن الزبير ، وثاروا مع عبد الرحمن بن الأشعث ، وثاروا مع يزيد بن المهلب . فتاريخ العراق في العصر الأموي ثورات متعاقبة لسبب طبيعي ، وهي أنه كان يُكِينُ خصومة حقيقية للأمويين وأنصارهم من أهل الشام .

وعبّر العراق عن هذه الخصومة في حزبين كبيرين هما حزبا الخوارج والشيعة ، وملاً كل من الحزبين صفحات الأدب العربي في هذا العصر بخطبه وشعره ، بحيث يستطيع الباحث أن يؤلف دراسة ممتعة لشعر كل من الطائفتين . وهو شعر كان يدور في كثير من جوانبه على الدعوة للانتفاض على الأمويين وبث هذه الخصومة العنيفة التي تُسْتَخْدَم فيها السيوف وتُسْفَكُ الدماء ، يَسْفِكُهَا الخوارج دائماً ، ويسفكها الشيعة من حين إلى حين .

وتصادف أن أكثر عرب العراق كانوا من العدنانيين ، بينما كان أكثر عرب الشام من القحطانيين ، فاتخذ الصراع بين الإقليمين شكل عصبية قَبَلِيَّة بين الفرعين العربيين الكبيرين . ولم تقف هذه العصبية عند القحطانيين والعدنانيين فقد ذهبت كل قبيلة بل كل عشيرة تجتري تاريخها في الجاهلية وأيامها وحروبها ، فاندلعت نيران خصومة شديدة بين القحطانيين والعدنانيين من جهة ، وبين شعبيهم وأحيائهم من جهة ثانية .

ولعل من طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أن كلا من البصرة والكوفة خُطِّطَ تخطيطاً قَبَلِيّاً ، فكل قبيلة لها خِطَّتْهَا ، ففي البصرة مثلاً لكل من تَسِيمِ والأزد وبسكّر وعبد القيس خِطَّتْهَا التي تنزل فيها ، وكانت الكوفة مقسمة إلى خِطَطٍ مختلفة بين القحطانيين والعدنانيين<sup>(١)</sup> ، وكان القحطانيون اثني عشر ألفاً ، بينما كان العدنانيون ثمانية آلاف<sup>(٢)</sup> .

قبيلة قبل نزول علي بن أبي طالب الكوفة وبعد نزوله . ومن طريف ما ذكره أن البصرة سبقت الكوفة في التحضر ، فقد بنيت منازلها وشيدت مساكنها قبل الكوفة بزمن بعيد .  
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٧٦ .

(١) انظر خطط الكوفة وشرح خريطتها لماسينيون ترجمة المصعب ( طبع مطبعة العراق - صيدا ) حيث يوضح ماسينيون ص ١٠ منازل كل قبيلة قحطانية أو عدنانية ، وقد ذكر أن القبائل حشدت في سبع خطط ، وأوضح خطة كل

وساعد هذا التخطيط نفسه على احتدام العصبية بين القبائل ، وكانت هذه العصبية أو الخصومات القبلية موضوعاً خطيراً ، يُدلى كل شاعر فيه بدلوه ، ويحاول أن يأتي فيه بكل ما يستطيع من ثناء على قبيلته أو أزهار فخرٍ يتوجها بها ، وفي الوقت ذاته يحاول أن يغضب من خصومها بل يحاول أن يرميهم بكل ما يستطيع من حجارة هجاء وقذف . ويخيّل إلى الإنسان أنه لم يعد من الممكن دفعُ هذا السيل ، فكل قبيلة أصبح لها شاعرها الذي يتغنى بمآثرها في الجاهلية وما كان لها من أيام وحروب وأجناد مختلفة ، وفي الوقت نفسه يصب جام غضبه على القبائل المعادية ، ويحاول أن يطعنها في صميم شرفها وحسبها الطعنة القاضية . وأصبحت البصرة والكوفة مسرّحاً لهذه العصبية أو قل لهذه السهام التي كانت ترّيشها القبائل المختلفة هناك ، وتصويها كل منها إلى صدر جارتها . وشاركتهن في ذلك القبائل المجاورة كقبيلة تغلب في الجزيرة . وهكذا أخذت كل قبيلة تزحف على جاراتها بشعرائها ومآثرها .

ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أن بيئة العراق أهملت الشعر العربي في هذا العصر لأن يخوض في موضوعين كبيرين . أما أولهما فهذه الخصومة السياسية التي اشتعلت بين الخوارج والشيعة وبين الأمويين ، وأما ثانيهما فهذه الخصومة القبلية التي التهبّت بين العدنانيين والقحطانيين ، ثم بين أغصانهم وشعبيهم المختلفة . فالشعر الذي وُجد في العراق لعصر بني أمية إما شعر سياسي ، وهو الذي كان يُقَال في الخصومة الأولى ، وإما شعر قبلي وهو الذي كان يقال في الخصومة الثانية .

وتأثرت موضوعات الشعر المختلفة في العراق بهذين الموضوعين الكبيرين ، وظهر التحامهما خاصة في مديح بني أمية على نحو ما نجد عند جرير والفَرَزْدَق والأخطل ، فقصيدة المديح عندهم تتأثر بالخصومات السياسية ، كما تتأثر بالخصومات القبلية .

على أننا إذا كنا نلاحظ على شعراء الحجاز تأثرهم بالحضارة المادية وما اندمج فيها من موسيقى وغناء ، فإننا نلاحظ على شعراء العراق أن التأثيرات الحضارية المعنوية فيهم كانت قوية . فهذا التراث الفارسي والروماني الإغريقي الذي كان

هناك قبل الإسلام وحّد سبيله إلى الشعراء مما سنعرض له في موضع آخر  
وليس هذا كل ما نلاحظه على هذه البيئة ، فنحن نلاحظ عليها أيضاً كثرة  
الشعر والشعراء ، بحيث تكاد تستقلُّ بأكثر ما جاءنا من شعر عن عصر بني أمية .  
وأكبر الظن أن ذلك يرجع إلى أن عرب العراق كان أكثرهم من العدنانيين أصحاب  
العربية الشمالية ، فقد اندفعت القبائل العدنانية من قبس ومضّر إلى العراق ،  
وهي القبائل التي تتميز بالشعر الكثير . ويكفي أن يعود الإنسان إلى ما تركت تسميم  
في هذا العصر من شعر ليرى أن العراق كان حقاً البيئة الأولى للشعر والشعراء في  
زمن بني أمية .

وأخرى نلاحظها على هذه البيئة ، وهي أنه إذا كان وُجِدَ في العصر الجاهلي  
من عرف اللسان الفارسي من عرب العراق كعديّ وأبيه زيد ، فإن الذين عرفوا  
هذا اللسان في العصر الأموي كانوا أكثر عدداً ، خاصة أن الفارسية كانت شائعة  
في البصرة والكوفة<sup>(١)</sup> ، وتذكر كتب الأدب شاعراً بصرياً ، هو يزيد بن مفرّغ  
الحميري ، كان يعرف الفارسية ، وكان ينظم فيها بعض شعره<sup>(٢)</sup> . وفي الوقت نفسه  
نجد هؤلاء الموالي الكثيرين الذين كان يطفح بهم العراق يشاركون في الشعر  
العربي ، فيظهر من بينهم بعض شعراء يحسنون صنْعَ هذا الشعر ، ويحاولون أن  
يتفوقوا فيه ، مثل زياد الأعجم مولى عبد القيس<sup>(٣)</sup> . وكل هذا دليل فتوّرة  
الشعر الشديدة في العراق ، وكثرة يناييعه التي شاركت فيه .

رأيه بنصوص مهمة . وأفرد بيغان في فهراس  
نقائض جرير والفرزدق التي نشرها بابا للألفاظ  
الفارسية التي استخدمهاها . انظر الجزء الثالث  
الخاص بالفهارس ص ٦١٢ .  
(٢) البيان والتبيين ١/١٤٣ .  
(٣) أغاني (طبعة السامي) ٩٨/١٤ .

(١) انظر في ذلك كتاب (العربية-دراسات  
في اللغة واللهجات والأساليب) ليوهان فك ترجمة  
الدكتور النجار (طبع جماعة الأزهر للنشر  
والتأليف) ص ١٤ وما بعدها ، حيث يذهب  
المؤلف إلى أن سيل العناصر الإيرانية في القرن  
الأول كان من القوة بحيث كانت اللغة الفارسية  
تحتل المكان الأول في البصرة والكوفة ، ودم

## الشام

يشتهر هذا الإقليم بكثرة مياهه ، واعتدال مناخه ، والتفاف غاباته وأشجاره من زيتون وغير زيتون، وكان خصبه ووقوعه على حافة البحر المتوسط الشرقية سبباً في أن تقوم به وتتعاقب عليه حضارات مختلفة، فقديمًا كان فيه الفينيقيون والعبريون، وقديمًا استعمره المصريون واليونان والرومان . وأهله ذلك دائماً للاتصال بالأمم القديمة وتمثل ما عندها من مدينيات .

وكان قبل الإسلام تابعاً لبيزنطة ، وكان الفرس يفكرون دائماً في الاستيلاء عليه ، فرأت بيزنطة ، كما رأت روما من قبل ، أن تستعين بالعرب المجاورين له ، فكوّنت الإمارة المعروفة باسم إمارة الغساسنة من آل جفنة .

والمصادر العربية التي تحت أيدينا عن تاريخ هذه الإمارة غامضة ، ولعل مرجع ذلك أن وثائقها التاريخية كانت بيزنطية بخلاف الحيرة ، فقد كانت وثائقها فارسية أو سُرّيانية ، وكان كثير ممن أسلم في العراق يعرف الفارسية والسريانية ، فاتصل العرب بتاريخ الحيرة مباشرة . أما تاريخ الغساسنة فلم يستطيعوا الاتصال به لعدم معرفتهم لليونانية ، ومن هنا بدأ ما كتبه عن هذا التاريخ مضطرباً مشوشاً ، وغامضاً مبهماً ، فبينما تعد بعض المصادر ملوك الغساسنة عشرة إذ تجعلها أخرى سبعة وثلاثين<sup>(١)</sup> ، وبينما يجعل حمزة الأصفهاني حكم الحارث بن جبلة عشر سنين إذ المصادر اليونانية تجعله أربعين . ثم إن حمزة يذكر بعد الحارث عدة أمراء حكموا، على زعمه، نحو خمسة قرون مع أنه من المحقق أن خلفاء الحارث لم يملكوا بعده أكثر من خمس وستين سنة<sup>(٢)</sup> .

ويشير نولدكه إلى أن مؤرخي العرب المختلفين لم تكن لهم معرفة واضحة بغير

(٢) أمراء غسان ص ٥ .

(١) انظر أمراء غسان لنولدكه (طبع بيروت)

ص ٥٧ وما بعدها .

أفراد قلائل من بني جفنة ، ويذكر أن الطبري ومن نقلوا عنه كانوا يجهلون هذه الأسرة جهلاً يكاد يكون تاماً<sup>(١)</sup>.

والتاريخ الحقيقي لآل جفنة إنما يبدأ بالحارث بن جبلة فهو أول أمير غساني يثق المؤرخون بإمارته ، إذ كان معاصراً لجوستينيان ، وقد جعله أميراً على كل القبائل العربية الشمالية سنة ٥٢٩ م بعد حادثة مهمة هي انتصاره على المنذر أمير الحيرة . ولم يكف جوستينيان بذلك ، بل منحه لقب « فيلارك و بطريق » . وكانت حياة الحارث سلسلة حروب بينه وبين المنذر ، وقد قضى عليه عام ٥٥٤ م ، وزار بيزنطة عام ٥٦٣ م وتوفي عام ٥٧٠ م .

وعيّنت بيزنطة من بعده ابنه المنذر ، وفي عهده هاجم عرب الحيرة الحدود السورية ، فانحصر عليهم في وقعة « عين أباغ » . وفي سنة ٥٨٠ م زار بيزنطة مع ولدين له فاستقبل استقبالاً عظيماً ، وهناك ألبسوه التاج ، واعترفوا به ملكاً أو أميراً على العرب . غير أنهم لم يلبثوا أن اتهموه وقبضوا عليه ، فثار عليهم أولاده بقيادة النعمان ، ووقع هو الآخر في قبضة أيديهم . ومن حيثند ضعف شأن الغساسنة ، وكادوا يعدّون منتهين ، ولذلك لا نسمع بهم في الحروب البيزنطية الفارسية التي شبّت عام ٦١٣ م ، وإن كنا نجد مؤرخي العرب يذكرون لهم أميراً في عصر الفتح هو جبلة<sup>(٢)</sup> بن الأيهم الذي أسلم ، ثم ارتد ، وهرب إلى قيصر ، وظل عنده حتى مات .

وإذا كان عرب العراق اللخميون عرفوا بمدينة اشتهرت هي الحيرة فإن عرب الشام الغساسنة لم يعرفوا بمدينة معينة . والمؤرخون والشعراء يذكرون لهم عدة مواضع ، كانوا ينزلون فيها ، إذ كانت إمارتهم تمتد من شمال بادية الشام من بصرى إلى فلسطين ، فكانت تشمل مقاطعات الجولان وحوران والبلقاء . ويتردد على ألسنة الشعراء ذكر جليق ، وكانت منازل بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى الذي يشتهر ببساتينه . وأشهر من جليق الجايبة وكانت على مسافة يوم إلى الجنوب الشرقي من دمشق .

(٢) أمراء غسان ص ٤٩ .

(١) أمراء غسان ص ٦٠ .

ويظهر أن الغساسنة لم يحلوا هاتين القريتين إلى مدينتين حقاً ، فكانتا خليطاً من الخيام والمباني البسيطة ، وإن كان حذرة الأصفهاني يُشيد دائماً بما بناه الغساسنة ، إلا أن نولدكه يتشكك في كل ما يزعمه من ذلك<sup>(١)</sup> . وربما كان للعلاقات العتيبة بين بيزنطة والغساسنة في أواخر العصر الجاهلي أثر في أنهم لم يستقروا تماماً ، إذ جعلوا أنفسهم دائماً على أهبة الفرار داخل الصحراء .

على أن هذا كله ليس معناه انقطاع الصلة بين عرب الشام والعناصر الحضارية البيزنطية ، فقد دخل هؤلاء العرب في المسيحية وأكثروا من بناتهم للأديرة . والذي لا شك فيه أن تأثيرهم بالعناصر الرومانية الإغريقية كان أقوى من تأثير عرب العراق لأنهم كانوا في نفس المجال البيزنطي . وقد اختاروا المذهب يعقوبي ، فإذا كان النساطرة هم الذين أثاروا في عرب العراق فإن يعقوبيين هم الذين أثاروا في عرب الشام . ويذهب أوليري إلى أن العاقبة يتفوقون على النساطرة في ترجمة الفلسفة الأرسططالية ، وشرحها ، والتعليق عليها<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أن ما تسرب إليهم من الفلسفة اليونانية لا يقل ، إن لم يزد ، عما تسرب إلى النساطرة .

ونحن نعرف أن الشام أو أكثرها تحول إلى الإسلام عربياً وغير عرب ، وكانت الشام كلها مسيحية ، وقد وضعت الكنيسة لاهوتها على أصول إغريقية رومانية . وإذا كنا لاحظنا عند النساطرة إنشاء المدارس اللاهوتية على سُنَنٍ مقتبسة من الأكاديميات الفلسفية كمدسة نصيبين فإننا نلاحظ ذلك أيضاً في الشام حيث أسست منذ القرن الثالث الميلادي مدرسة في قيساريّة وأخرى في أنطاكية<sup>(٣)</sup> . ولما فُتِح باب الجدل في القرن الخامس الميلادي في طبيعة المسيح استعان المتجادلون بالفلسفة اليونانية ومنطقها ، حتى يدعموا آراءهم بالحجج والبراهين .

وإذن فالشام قبل الإسلام كانت غارقة في تأثيرات رومانية بيزنطية ، فلما فتحها العرب واستقروا فيها تحولت إليهم هذه الروايات العقلية . يقول فون كريمير : « وبهذا الطريق وحده يجب أن يُفسَّر التشابه البين الذي نلاحظه في مظاهر

(٣) أوليري ص ١٢٨ .

(١) أمراء غسان ص ٥٣ .

(٢) أوليري ص ١٤١ .

المسيحية البيزنطية الأساسية والتعاليم الإسلامية . وإن البحث في كنه الله وصفاته هو أول شيء له المقام الأول في كتابات كل من آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين عند العرب ، فأقدم علماء المسلمين يشغفون أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التي تدور حول القضاء والقدر والإرادة<sup>(١)</sup> .

ومعنى ذلك أن الشام ساعدت مساعدة فعالة في تكوين العقلية الإسلامية لهذا العصر الأموي ، ومن أهم الذين ناقشوا في هذا الجانب وأعظمهم يوحنا الدمشقي الذي كان يكتب اليونانية ، وكان يلقب لفصاحته بدفّاق الذهب ، وكان في شبابه نديماً ليزيد بن معاوية ، وولى إدارة الشؤون المالية في دمشق لغير خليفة ، وله مؤلفات مختلفة ، منها محاوره مع مسلم في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإدارة ، وكتاب لأرشاد النصارى في جدالهم مع المسلمين . ويرجح أنه ناقش كثيرين منهم في القدر ، وأن مناقشاته تلك كانت تدور أحياناً في حضرة الخليفة . ولا شك أنه نقل إلى العرب في أثناء ذلك كثيراً من النزعات النصرانية والأفكار الإغريقية<sup>(٢)</sup> .

وكل الدلائل تدل على أن العرب في الشام كما أقبلوا على يوحنا أقبلوا على كل ما كان هناك من عناصر عقلية ، ولم يجدوا حرجاً في ذلك ، بل لقد دفعوهم دفعاً إلى أن يترجموا لهم بعض المؤلفات اليونانية . ونخالد بن يزيد بن معاوية خير من يصور لنا ذلك ، فقد تتلمذ لراهب يسمى مريانس ، وأخذ عنه صنعة الطب والكيمياء<sup>(٣)</sup> ، ويقول ابن النديم عنه إنه : « عُنِيََ بإخراج كتب القدماء في الصنعة . . . وهو أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه كتاب الحرات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة<sup>(٤)</sup> » .

ولا شك في أن خالدًا إنما هو رمز للحركة الكبيرة التي قامت في الشام وما شاع فيها من تبادل هذه السلع العقلية : يعطى العرب شعرهم وقرآنهم وحديث رسولهم ،

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان (طبع

ديسلان) ٢٤٦/١ .

(٤) فهرست ابن النديم (طبع ليسك)

ص ٣٥٤ .

(١) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات

الأجنبية (نشر دار الفكر العربي) ص ٦٦ .

(٢) انظر تاريخ العرب (مطول) لفيليب

حتي (نشر دار الكشاف) ٣١٤/٢ .

ويأخذون الفلسفة اليونانية والأفكار المسيحية، ويتأثرون في أثناء ذلك بما كان شائعاً هناك من تشريع بيزنطي ومن نُظُم إدارية في الدولة ونظم حربية .

فالتأثير الروماني الإغريقي في الشام كان عنيفاً ، وكان من آثاره هذا التنظيم الحربي الذي نجده في رسالة عبد الحميد الكاتب إلى وليّ عهد الخليفة الأموي الأخير : مروان بن محمد . وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ، ويترجم منها بعض رسائل لأرسطاطاليس<sup>(١)</sup> . وهذا كله يجعل الشام في مكان عكسي من حيث وصل العرب بالحضارة الرومانية الإغريقية ، وهو وصل بدأ منذ الجاهلية ، ولكنه اتسع في هذا العصر اتساعاً شديداً .

وقد لاحظنا أن العرب الذين كانوا في الشام قديماً كان أكثرهم إن لم يكن كلهم من القحطانية ، وكان لهذا تأثيره على هذه البيئة من حيث شاعريتها، فإن من يستعرض نصوص العصر الأموي لا يكاد يجد للشام نشاطاً يُذكر من حيث الشعر، وأكبر الظن أن هذا يرجع إلى أن السكان هناك كان أكثرهم يمنيين ، اصطنعوا العربية الشمالية اصطناعاً، فلم تؤهلهم لقول الشعر ونظمه ، ولذلك لا نجد لهم شعراء مشهورين في هذا العصر سوى عدى بن الرقاع العاملي .

وفرق بعيد جداً بين نشاط الشعر في العراق ونشاطه في بيئة الشام ، ففي العراق نستطيع أن نعد أسماء شعراء ممتازين بالعشرات ، فصحف الشعر نُتلتى في كل مكان ، أما في الشام فلا يكاد يظهر على المسرح شاعر ممتاز سوى عدى بن الرقاع ، ومع ذلك فهو لا يُعدُّ شيئاً بالقياس إلى فحول العراق من مثل جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة والكهميت وهلم جرا .

فبيئة الشام لم تكن بيئة شاعرة كما كانت بيئة العراق ، وأكثر ما كان يقال فيها من شعر كان يتفد عليها من الخارج . واتخذ ذلك صورتين : الأولى أن يفد الشعراء بشعرهم على دمشق يُشندونه الخلفاء، والثانية أن تحدث في الشام حوادث تقضي تنظّم الشعر كهذه الحوادث، أو قل كهذه الحروب ، التي نشبت بين القبائل القيسية حين هاجرت هناك وبين القبائل اليمنية في الشام . فقد اقترنت هذه

الحروب بشعر كثير . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن أكثر هذا الشعر كان وافداً على الشام مع هذه القبائل القيسية مثل عامر وسُلَيْمِ التي وفدت هناك من بوادي نجد والحجاز ، واستقر كثير منها في قِنَسْرِينَ وفلسطين العليا . وسرعان ما تطورت الظروف وجاءت موقعة مَرَجٍ رَاهِطٍ ، واشتبكت الفئتان في حروب دامية ، واشتبك شعراؤهما في مفاخر ومثالب كثيرة .

ومع ذلك يمكن أن نعد هذا الشعر طارئاً ، لأنه أتى مع هذه القبائل القيسية . والحق أن الشام لا تقارَنُ بما كان في العراق من نشاط أدبي ونشاط في الشعر خاصة ، لهذا السبب الذي ذكرناه ، وهو أن كثرة أهلها كانوا يمينيين أو لم يكونوا يُحْسِنُونَ لسان العربية الشمالية كما أحسنه أهلها ، فتأخروا عنهم في نظم الشعر ولم يستطيعوا أن يجاروهم فيه .

على أن هناك نشاطاً في الشعر حدث في هذه البيئة ، ولكنه لم يحدث عن طريق هذه القبائل اليمنية ، إنما حدث عن طريق الأسرة المُضَرِّيَّةِ هناك ، وهي الأسرة الحاكمة من بني أمية ، فإن بعض أمراء هذه الأسرة انصرفوا إلى حياة اللهو والغناء التي سبقت أن تحدثنا عنها في الحجاز ، وكان كل شيء من حولهم يؤهلهم لذلك ، فقد نَعِمُوا بحياة مرفقة غاية الترف وعاشوا في قصور باذخة ، وأحاطوا أنفسهم بكل ما يستطيعون من مظاهر الفخامة . ويخيَّلُ إلى الإنسان كأن الجوكلة أصبح عِطراً خالصاً ، أو كأن البيئة أصبحت كلها حلية وزينة<sup>(١)</sup> .

وقد ذهب هؤلاء الأمراء والخلفاء يستقدمون مغني الحجاز ومغنياته ، فأهلوا بذلك الشام لأن تنتقل إليه هذه الحركة الغنائية التي سبقت أن وصفناها في الحجاز ، وقد انتقل معها هذا الشعر الغنائي الذي كان ينظمه عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومن إليهما من الشعراء في مكة والمدينة . وهناك أسماء خلفاء ثلاثة يتردد ذكرهم في هذا المجال ، وهم : يزيد بن معاوية ، وابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد ، فإن هؤلاء الخلفاء طلبوا الغناء الحجازي ، وفَسَحُوا له في مجالسهم ، وعقدوا للمغنين والمغنيات الحفلات المختلفة .

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي لسيد أمير على (ترجمة رياض وأفت) ص ١٦٨ وما بعدها .

وكان من آثار ذلك أن أخذت الشام تقلد الحجاز ، وتنقل عنه هذا الغناء الجديد وما ارتبط به من هذه النظرية التي سبق أن أشرنا إليها ، ولعل حينئذ بعض أسماء ، أشهرها أبو كامل الغزَّيْل مغني الوليد بن يزيد .

وليس هذا كل ما يلاحظ على هذه الحركة ، فقد انتقل أيضاً هذا الفن الجديد من الغزل المطبوع بالطابع الغنائي التام . ونحن لا نصل إلى الوليد بن يزيد حتى نجدّه ينفذ من أثناء ذلك كله إلى أن يصبح مغنياً يحسن الإيقاع والضرب على الأدوات الموسيقية ، بل تُنْقَلُ عنه أصوات تُؤثّر في بيئات المغنين . وليس هذا فحسب ، فقد كان شاعراً غنائياً بالمعنى الكامل فشعره كله مقطوعات حُـبٌّ وخمر ، وشعره كله ألف من أجل الغناء . وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع .

ولعل في هذا ما يدل على أن الشام لم تعرف الشعر في هذا العصر الأموي إلا طارئاً ، إما على لسان هؤلاء الشعراء الوافدين الذين كانوا يمدحون الخلفاء في دمشق ، وإما تحت تأثير ظروف طارئة كهذه الحروب التي شبّت ناراها بين القيسية واليمينية منذ فتنة ابن الزبير ، أو على لسان هذه الأسرة القرشية المضريّة من بني أمية . وهذا كله واضح الدلالة على أن بيئة الشام كانت متخلفة في هذا العصر، من حيث الشعر ، عن بيئة العراق وبيئة الحجاز ، ومع ذلك فهناك بيئات إسلامية كانت أكثر تخلفاً ..

٥

### بيئات أخرى

وهذه البيئات التي كان تخلفها أكثر من تخلف الشام هي : اليمن ، ومصر ، وبلاد المغرب ، والأندلس . أما اليمن فعروف أنها كانت أكثر تحضراً من الحجاز ونجد ، وقد قامت بها دولٌ قديمة كسبأ ومَعِين ، وأتت من بعدها الدولة الحميرية منذ القرن الثاني قبل الميلاد، ومن اسم هذه الدولة تسمى اللغة الجنوبية باسم اللغة الحميرية ، وهي تخالف العربية الشمالية في كثير من مفرداتها ووجوه اشتقاقها .

ومن أجل ذلك يكون من الطبيعي أن لا نجد في هذه البيئة العربية الجنوبية نشاطاً أدبيّاً لا في الشعر ولا في النثر ، لسبب بسيط وهو أن أهلها لم يساهموا في الشعر الأموي كما أنهم لم يساهموا سابقاً في الشعر الجاهلي . فأهل اليمن ، الذين استمروا فيها ولم يهاجروا ، ظلوا يعيشون كما كانوا يعيشون في الجاهلية ، أو ظلوا يُجسرون حياتهم على نحو ما كانوا يجرونها قديماً ، وأيضاً فإنهم ظلوا يستخدمون غالباً اللغة الحميرية كأسلافهم السابقين .

ولا ريب في أن لغة قريش أو لغة القرآن الكريم أخذت تؤثر فيهم ، ولكنه كان تأثيراً بطيئاً ، فلم تظهر آثاره سريعاً في هذا العصر ، إنما ظهرت في عصور متأخرة . ومن هنا كانت بيئة اليمن متخلفة في الشعر في أثناء هذا العصر الأموي ، فليس لها نشاط فيه ، إلا من هاجروا منها في الفتح ، واختلطوا بعرب الشمال ، واستخدموا لغتهم في التعبير عن خواطرهم . ولكن هؤلاء المهاجرين يُعَدُّون منفصلين عن بيئتهم ، فقد عاشوا في بيئات أخرى . والذي نسجّه هنا أن بيئة اليمن نفسها لم تشارك مشاركة ذات قيمة في الشعر في أثناء عصر بني أمية ، لأنه كان يقال في لغة تُعَدُّ غريبة بالقياس إليها ، فطبيعي أن لا تنظّم فيه أو على الأقل أن لا تبرع فيه براعةً من شأنها أن تُحدث لها فيه نشاطاً أدبيّاً يذكر .

وأما مصر التي وصفها هيرودوت بأنها هبة النيل ، فقد كانت أعرق من اليمن في الحضارة ، وقد شاركت في المدنية الإنسانية منذ بُنيت الأهرام ، وعنها تلقّت الأمم القديمة من فينيقيين وبابليين ويونان . وكما أعطت أخذت ، فانصلت بالحضارة اليونانية والرومانية ، وشاركت مدرسة الإسكندرية في الفكر الإغريقي ، وطوّرت فلسفته إلى الأفلاطونية .

فلما فتح العرب مصر كانت الثقافة الإغريقية الرومانية منتشرة فيها ، وكانت اليونانية تُدرّس في الإسكندرية ، وكذلك كانت تدرس السريانية<sup>(١)</sup> . وهذا طبيعي لأن السريانية كانت لغة اللاهوت المسيحي وكانت مصر مسيحية ، فانتشرت بأديرتها ، ولقيت عنايةً من رهبانها .

(١) فتح العرب لمصر لبتلر (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٨٤ .

وكلُّ ما سبق أن قلناه عن اتصال المسيحية في الشام والعراق بالثقافة الرومانية الإغريقية يُطبَّق تطبيقاً على مصر ، بل لقد سبقت مصر الإقليمين السالفين بما أوجدت من الأفلاطونية الحديثة ، وانبرى علماء اللاهوت فيها يفيدون من الفلسفة اليونانية ، ويعلقون عليها ، ويشرحون ، كما انبرى معهم علماء الإسكندرية . وظلت عناصر من هذه الثقافة في البيئة المصرية وأثرت في الأجيال التالية ، على الرغم من إغلاق مدرسة الإسكندرية ، فقد هجرها أساتذتها إلى أنطاكية في عهد عمر بن عبد العزيز ، ولكن على كل حال ظلت آثارهم ، وظلت عناصر من هذه الثقافة القديمة منتشرة في مصر بدليل ما عُرِفَتْ به في العصور التالية من كثرة الأطباء .

ونحن نعرف أن كثيراً من القبائل العربية هاجرت إلى مصر حين سمعت بخيراتها وثمارها ، ومع ذلك نلاحظ أن نشاطها الأدبي في هذا العصر الأموي كان محدوداً جداً ، فإذا عرفنا أن أكثر القبائل العربية التي هاجرت إليها كانت يمنية أمكننا أن نعرف لماذا تخلّفت في الأدب والشعر لهذا العصر ، فإن القبائل اليمنية حتى التي تركت مواطنها قبل الإسلام إلى الشمال لا تنبع في الشعر العربي نبوغ القبائل الشمالية المضربة والقيسية .

والواقع أننا لا نجد في مصر شعراً يُذكر في هذا العصر إلا شعر الشعراء الوافدين عليها ، فقد زارها طائفة غير قليلة من الشعراء ، حينما كان عبد العزيز بن مروان والياً عليها من قبل أخيه عبد الملك ، إذ كان ممدّحاً كثير النوال جزيل العطاء ، فكان الشعراء يقدون عليه لمدحه ، ومن وفدَ عليه كُثيرون ونُصِبَ وابن قيس الرُّقِيَّات وأبَسَمَن بن خُرَيْم وعبد الله بن الحجاج التَّغْلِبِي وجَمِيل . ونجد في ( كتاب الولاية والقضاة ) للكندى و ( كتاب الأغاني ) نصوصاً كثيرة لهؤلاء الشعراء في مديح عبد العزيز .

فالشعر الذي ظهر في هذه البيئة لم يكن من صنُوعها ، إنما كان وافداً عليها مع هؤلاء الشعراء ، وهو ليس شعراً مصرياً يمكن أن يُنسبَ إليها . وإذا تصفحنا ( كتاب الولاية والقضاة ) للكندى ، وهو خير مرجع للشعر العربي في مصر في أثناء عصر الولاية ، لم نجد شاعراً مصرياً نابهاً في هذا العصر . وحقاً تمثل

الكندى ببعض أشعار لتفسّر من المصريين ، ولكنها أشعار ضعيفة ، ولا تعبر عن وجود نسب فياض بمصر . وربما كان خير من يذكرهم ابن أبي زَمْرَمَة ، وكان معاصراً لعبد العزيز بن مروان ، ولكنه على كل حال شاعر متوسط إن لم يكن ضعيفاً ، فأجنحته لا تكاد تنهض به في أفق الشعر العربي العام لهذا العصر .

ومعنى ذلك أن مصر في عصر بني أمية ليس لها نشاط يُدْكَرُ في الشعر العربي ، لأن العرب الذين حملوا فيها لم يكونوا ذوي استعداد تام لأن يتفوقوا في هذا الشعر ، فقد كانوا يمينيين ، ولم يكونوا ينظمون من الشعر إلا البيتين والثلاثة أو القطع القصيرة ، على نحو ما نجد في كتاب الولاة والقضاة . وأظن في ذلك ما يدل دلالة واضحة على هذا الضعف والتخلف .

وإذا تركنا مصر وولّينا وجوهنا نحو بيئة المغرب وجدناها بيئة مَرَامِيَة الأطراف إذ تمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي بمحاذاة البحر المتوسط . وقد سكنها البربر منذ أقدم الأزمنة ، ونزل بها الفينيقيون في قرطاجنة بالقرب من تونس ، ثم استولى عليها الرومان ، وحاولوا أن ينشروا بها لغتهم ، كما حاولوا أن ينشروا بها المسيحية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا بذلك بعيداً عن الساحل إلا في مناطق قليلة .

وقد استولى العرب على المغرب من يد بيزنطة ، إذ كان تابعاً لها حينئذ ، وكانت في شواطئه هذه العناصر الفينيقية والرومانية ، وأيضاً الإغريقية ، لأن العناصر الإغريقية ، كما هو معروف ، اختلطت بالعناصر الرومانية اختلاطاً واسعاً في حوض البحر المتوسط كله .

ونحن نلاحظ هنا ما لاحظناه في مصر من أن القبائل التي نزلت في بلاد المغرب كان أكثرها من اليمن ، فلم تكن من هذه القبائل الشاعرة : قبائل عدنان الشمالية . وإذا كنا قد لاحظنا أن شعراً طارئاً ظهر في مصر على السنة هؤلاء الشعراء الذين زاروها لمديح عبد العزيز بن مروان ، فإننا نلاحظ هنا أنه حتى هذا الشعر الطارئ لم يوجد في بلاد المغرب ، لأنه لم يوجد فيها الحاكم القوي كثير البذل والعطاء الذي يجذب إليه الشعراء من الحجاز ، أو نجد ، أو العراق .

فبلاد المغرب في عصر بني أمية أكثر تخلفاً من مصر في مجال الشعر والشعراء . وكذلك الشأن في الأندلس ، على الرغم من اللخائر اللاتينية التي كانت

مباشرة فيها قبل الفتح، وما اختلط وامتزج بهذه الذخائر من عناصر فينيقية ويونانية، فقد كان للفينيقيين واليونان مستعمرات بها قبل الغزو الروماني واستيلاء روما عليها .

على كل حال كان في بلاد الأندلس عناصر عقلية وحضارية بثتها الحضارات التي مرت بها ، وكان أهلها مسيحيين ، وكانوا متأثرين تمام التأثير بروما اللاتينية . غير أن هذه البلاد لم تُحَضِّصْ في عصر بني أمية إلا فترة محدودة ، فعملية المزج العقلي والحضاري بينهم وبين العرب لم تجد الفرصة للتكامل حينئذ . وإذا رجعنا إلى القبائل العربية التي نزلتها وجدناها من نفس القبائل التي نزلت في مصر وبلاد المغرب ، فهي غالباً قبائل يمنية . ومعنى ذلك أن الأندلس لم تكن نشيطة في الشعر العربي لهذا العصر ، بل كانت متخلفة ، لأن العرب الذين نزأوها أنفسهم كانوا متخلفين من حيث الشعر والشعراء .

وأظن أننا بعد هذه الجـولة في الدولة الإسلامية نستطيع أن نحدد المواطن والبيئات الجغرافية النشيطة التي أنتجت الشعر العربي في العصر الأموي ، وأن نعرف أى أنواع الشعر كان يسود في هذه المواطن والبيئات . فأما اليمن ومصر وبلاد المغرب والأندلس فكانت متخلفة ولم يكن لها أى خَطَرٌ في الشعر . والمواطن والبيئات التي كان فيها شعرٌ يستحق الدرسَ حقاً هي الأربعة الأخرى : الحجاز ونجد والعراق والشام .

أما الحجاز فاختصت بنوع من الشعر الغنائي الكاهل الذي كان يُصْحَبُ بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية . وأما نجد فاختصت بنوع من الغزل العذري العفيف ، كما اختصت بشعر يدور حول الشكوى من الخراج والصدقات وعَسَفُ الولاية والسعاة . وأما العراق ، فهي أهم بيئة نشط فيها الشعر ، وقد اختلفت بنوعين كبيرين منه ، هما : الشعر السياسي والشعر القبلي . أما الشعر السياسي فشعر الخوارج والشيعة ومن كان يقابلهما من أنصار الأمويين ، إذ نجد لكل حزب من هذه الأحزاب شعراء الذين كانوا يناضلون عنه نضالاً عنيفاً . ولم ينقطع هذا النضال يوماً طوال العصر ، إذ كانت أصوات هؤلاء الشعراء ترتفع في كل مكان في العراق ، إما من قبيل الخوارج أو من قبيل الشيعة أو من قبيل أنصار بني أمية . وأما الشعر

القبلي فشعر العصبية والفخر والهجاء ، إذ اصطفت القبائل في البصرة والكوفة ، وأثرت الأحسابُ والأنسابُ القديمة ، ونهض شعراء كل قبيلة يذودون عنها ويرمون خصومها بكل ما يستطيعون من حجارة قذف مُدْمِية ، وسهام هجاء مُصمّية ، يريدون أن يقهروهم ويظهروا عليهم ويغثروهم . ويخيّل إلى الإنسان كأن العراق تحوّل إلى ما يشبه بركاناً ثائراً ، فدائمًا هذه الحمم القبليّة ، ودائمًا أختها السياسية تصوّب من كل مكان وإلى كل مكان .

أما الشام فكان لها نشاط في الشعر أيضًا لهذا العصر ، ولكنه لم يكن يأتي من داخلها ، فقد كان أكثر سكانها من اليمنية الذين لا يمارسون الشعر على نحو ما يمارسه العدنانيون والمصريون ، إنما كان يأتي من خارجها ، إما بسبب هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتفدون على الخلفاء من الحجاز ونجد والعراق ينشدونهم مدائحهم ليأخذوا جوائزهم ، وإما بسبب القبائل القيسية من عامر وسليم التي هاجرت هناك بعد الفتح واشتركت مع القبائل اليمنية في معارك حربية وأخرى لسانية أداتها الشعر كما أسلفنا ، وإما بسبب هذه الأسرة القرشية الحاكمة من بني أمية التي أمعن أبناؤها في الترف ، وتفننوا في ضروب اللهو ، واتصلوا بفن الغناء والموسيقى الذي شاع في الحجاز . فكان ذلك كله سببًا في أن تحاول الشام أواخر هذا العصر أن تشارك مشاركة قوية في الشعر الغنائي ، الذي عُرف في الحجاز ، على نحو ما نجد عند الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وهكذا دائمًا كانت الشام تنقل من الخارج ، فنشاط الشعر فيها لهذا العصر غالبًا نشاط طارئ .